**الأستاذ أسد زين غندور**

## حول بعض آفات العقل العربي

لم تتقدم الشعوب التي أرست أسس نهضتها وثورتها وتقدمها في المضمار الحضاري جديًا إلاّ بعد أن انطلقت من أرضية عقلانية في معالجة قضاياها المصيرية. والأمر الغريب في ما يخص نهضتنا العربية، أننا نتكلم عن العقل والعقلانية دون أن نقطع مسافة مهمة على هذه الدرب الطويلة والشاقة في آن، ليس في السياسة فحسب، بل في مختلف المجالات: الاجتماعية، الاقتصادية، التربوية، الثقافية، والبيئية... الخ، فعقلنا ليس مصابًا بأزمة، وإنما هو مصاب بآفات أصبحت بنيوية ومزمنة، وعميقة الجذور، وتشكل عائقاً أمام حركة التقدم والوحدة. حيث بات ينطبق علينا قول ماركس الشهير: "لقد وجد العقل لدى الإنسان على الدوام، ولكن ليس دائماً في صيغة عقلانية". فما هي العقلانية، وكيف ومتى نشأت وأين؟

العقلانية هي مفهوم نقيض للتقليدية والتقليدوية، وجاء مع فلسفة عصر الأنوار، استناداً إلى بعض الإكتشافات التي حققها علم الطبيعة، وبخاصة اكتشافات نيوتن، حيث انطلقت هذه الحركة الفكرية العلمية لترسي قيم ومناهج عالم حديث. إذن، العقلانية، وهي الليبرالية على الصعيد المعرفي، تؤمن بالإكتشاف التدريجي للحقيقة، التي هي غير مكتملة على الدوام، سواء في الطبيعة أم في المجتمع، بواسطة العقل وحده، وتحت رقابة التجربة. لذا فهي ترفض الميتافيزياء، المسبقات، المطلقات، المعتقد الإيماني، الوحي... التي كانت تشكل مناهج المعرفة الوسطوية، أي معرفة القرون الوسطى. وبدون هذه العقلانية ما كان للعلوم أن تتقدم هذا التقدم المذهل في مختلف الميادين، وبالتالي لا يمكن للعلم أن يتقدم في أي مجتمع يرفض هذه العقلانية. مع هذه الحركة الفكرية النهضوية انخرط المجتمع والدولة

البورجوازيان في طريق العقلنة، ودفع المجتمع الاشتراكي والدولة الاشتراكية هذه العقلنة إلى الأمام، وساهما في تخليصها من تناقضاتها وثغراتها.

في المجتمع العربي، والتجربة العربية، كان العقل العربي شبه غائب بشكل عام، وبقيت المرتكزات العلمية فيه تستند إلى مفاهيم وقيم تقليدية ومطلقة وغير بنيوية، ومن هنا نجد أن الغرب، بمختلف أشكال النظم السائدة فيه، قد تقدم، وبقيت مجتمعاتنا وأنظمتنا غارقة في وحول التأخر والتبعية.

في هذه المقالة، أتناول بعضاً من آفات العقل العربي التي ساهمت، بدون شك، في تأخرنا، على المستويين الفكري الإيديولوجي والعلمي التكنولوجي، رغم بعض شذرات تطل وتطلق من هنا وهناك، إلاّ أنها بقيت عاجزة عن التأثير في صلب بنية مجتمعاتنا، وخندقت في جوانب واتجاهات ضيقة غير مؤثرة.

## 1- اللاتاريخانية:

التاريخ هو البعد في الزمان الذي يتكون خلاله التطور والتقدم. و"التاريخ" ليس علم الماضي، وإنما هو علم المستقبل، وذلك هو الفرق بين التاريخ والأساطير. فالأساطير تتوقف عندما كان، وأما التاريخ فعطاء مستمر كل يوم.

إنّ الأساطير بركةٌ راكدة، آسنة، بينما التاريخ نهرٌ مستمرُ التدفق والجريان، وحين يصبح الماضي هو الفعل المنتج في العقل العربي، وحيث يتحول الحاضر والمستقبل إلى ساحة جامدة، راكدة، وحيث تصبح ديناميكية الحاضر وحركته غير مشروعة إلاّ بعد تطابقها مع الماضي، ينتج عن ذلك عطالة الزمن وانسداد الأفق وتوقف عملية التطور. فالتاريخ هو ترابط الزمن في سلسلة لا تنقطع من الاستمرارية والنشاط والبحث والإكتشاف.

والتاريخانية، هي اتجاه يؤكد على "موضوعية تطور المجتمعات وعلى وجود قانون يحكم مراحل تطورها الطبيعي". (ياسين الحافظ – كتاب: التجربة التاريخية الفينامية).

وقد ميَّز المفكر المغربي عبدالله العروي، في كتابه: "أزمة المثقفين العرب". بين تاريخانية يمينية أو محافظة، وأخرى يسارية أو ثورية، التاريخانية اليمينية تذوب بسرعة في التقليد وترتد إلى تطورية

خالصة، لأنها تنكر إرادة اختصار مدة الحمل. أما التاريخانية اليسارية، أو تاريخانية العقل، تصب، في حالة البلدان المتأخرة، كبلداننا، بالطبع، في الليبرالية وتبررها، حيث تؤمن الليبرالية بالمراسيم.

كل الشعوب تفكر بماضيها، هذا صحيح، ولكن هناك فرق واسع بين ماضٍ ممتد إلى الحاضر ويشكّل الحاضر جزءاً مكملاً له لا ينفصل عنه، ماضٍ متجدد يخضع للفحص والمراجعة والنقد الصارم، وبين ماضٍ مخثّر متيبس تفصله عن الحاضر مسافة زمنية وعلمية طويلة.

### 2- النظرة الآحادية:

إنّ أحد أهم آفات العقل العربي هي النظرة ذات البعد الواحد، وهي مرض مزمن شائع بين مختلف الخطوط السياسية والإتجاهات الفكرية والمدارس الفلسفية وبعض النظريات ومختلف المعتقدات الإيديولوجية وتلاوينها. فهي:

**أولاً:** نظرة إسقاطية ينفيها الواقع الخارجي واحتوائه في إطار الذات الضيقة.

**ثانياً:** نظرة تجريبية تخضع الكثافة الموضوعية للواقع الذي يغلفه الرمز والتصميم.

**ثالثاً:** نظرة سكونية (ستاتيكية) تنطوي على الجمود بانعدام قدرتها على رؤية الظواهر في حالة التفاعل بين الداخل والخارج، بين العام والخاص، وبين ما هو رئيسي وما هو ثانوي، وتتجاهل قوانين الصراع التاريخية ووحدة الأضداد وتناقضاتها وصراعاتها.

**رابعاً:** نظرة تجزيئية. لا تبين همزات الوصل العديدة بين مختلف الظواهر، طبيعية كانت أو إنسانية، وإنما ترى الأشياء معزولة عن بعضها البعض، فتهمل السياق الديناميكي الذي يربط المقدمات بالنتائج. إنه عقل شغوف بالسحب وملع بتجديد البداية والنهاية دون أن يقيم وزناً أو يحسب حساباً للخط الواصل بين النقطتين، هذا الخيط الزاخر بالتفاصيل والحيثيات التي باسقاطها يظهر المنهج العلمي جديته ورصانته. وبالتالي يسقط السياق الذي هو زمن وتفاصيل وأحداث ومواقع وفعل وردة فعل.

**خامساً:** نظرة فوقية. نتيجة تشابك العناصر السابقة مجتمعة، حيث لا نرى سوى سطوح الأشياء بخطوطها المستقيمة أو المتوازية أو المتقاطعة. إنها نظرة عاجزة عن سبر جوهر المقولات والمواضيع والمعضلات وتعقيداتها الداخلية وخطوطها المنحنية والمتكسرة. هي نظرة حسابية وبدائية، وليست نظرة الرياضيات العليا (الجبر) التي تعتبر نظرة أفقية وعامودية في ذات الوقت وترى السطوح والأعماق معًا ومن مختلف الجوانب، لذا فهي قاصرة عن استشراف المستقبل، فضلاً عن الفعل المؤثر في الحاضر والواقع.

هذه النظرة الأحادية قدمت أجوبة سقيمة وخاطئة عن الواقع العربي وبلاياه. فالهزائم العربية المتتالية تقدم نموذجاً، مسطرة نموذجية: هزيمة 1948 – هزيمة 1967، وحتى حرب تشرين عام 1973 تؤكد هذا الإتجاه المرضي الإنفصامي عن الواقع ولا تنفيه أو تناقضه. فقد قيل عن الهزائم: أن التخلف هو السبب، وتارة قيل الأنظمة الديكتاتورية، وفريق ثالث ألحَّ بأن الإلحاد هو رأس المصائب... وتيارات أخرى ألقت اللائمة على البورجوازية والبرجوازية الصغيرة، وغيرهم علَّق الهزيمة على شجب وسب الإستعمار والصهيونية والإمبريالية العالمية... وبالتالي غابت عن كل هذه التيارات النظرة الموضوعية العلمية – الشمولية – الكونية – التاريخية – الجدلية – النقدية التي يمكن أن تقدّم أجوبة صحيحة وشافية على أسئلة صحيحة ومحقة، وحلولاً مطابقة للواقع العربي تهدف إلى معالجته وتغييره وتطوره بدلاً من التعايش معه والرضوخ لكل أمراضه المعشعشة في كل بناه وزواياه.

### 3- **النزعة السلفية:**

أو التقليدية، وهي الاتجاه "الذي يتحاشى أي قطيعة مع التقليد، لإعتباره مستودعاً للحقيقة، ويحفظ الأشكال والقيم القديمة السياسية والدينية والأخلاقية، بوصفها التعبير التلقائي عن الحاجات الحقيقية للمجتمع".

في الفلسفة، السلفية هي المذهب الذي ينتقص من دور العقل في معرفة الحقيقة، لحساب الوحي والكشف.

إنها نزعة صوفية تُحلّق فوق الواقع والتاريخ. وهنا يصبح العقل في بحثه عن حلول لمشاكل الواقع حبيساً في أهداف النظريات الجاهزة. ومن خواص السلفية أنها لا تمارس الإستقراء أو التحليل أو النقد، لأنها نزعة ذهنية، آلية، أو فعل ميكانيكي مسطّح للعقل، وهي نزعة قياس ونقل في آن معاً. وبكلمة، السلفية هي الدفاع المتأخر عن الذات، وتقديس للماضي والوقوع فريسة في براثنه. فبدلاً من تشغيل العناصر الإيجابية من الماضي وضبطها واحتوائها، أصبح الماضي يحتوي دعاتها ويُعطل قدراتها على الإقلاع والإنطلاق. "فالسلفي الديني يبحث عن مشروع النهضة العربية والتقدم من خلال الماضي ورواسبه، ماضي الأصالة والجذور والإسلام الحقيقي زمن الخلفاء الراشدين. والسلفي الماركسي يبحث عن النهضة عبر تجارب الماركسية الروسية أو الصينية... الخ. ولا يبدع، أو يتكيف مع الظروف الموضوعية والواقعية، ولا يرى مجمل التعقيدات التي تحول دون تقدمه قبل تفنيدها وحلحلتها ودحضها وتجاوزها. وهكذا يصبح الماضي حاضراً والقديم جديداً". (محمد عابد الجابري... كتاب نحن والتراث).

في الغرب، كانت السلفية، التقليدية، العفوية، المرتكزة على اللاهوت والممتزجة به، تشكل الغطاء الإيديولوجي لمجتمعاته الزراعية. منذ عصر الأنوار، وعصر النهضة، وفي سيرورة صراعٍ طويلة بين العقلانية البازغة واللاهوت الغارب، وبخاصةٍ مع القطيعة مع الماضي التي حققها عصر الأنوار وعلماء عام 1789، وبشكل خاص مع نمو ونضج المجتمعات الصناعية، غدت تلك التقليدية واعية وأصبحت مذهب الشرائح الاجتماعية، التي ببقائها بمعزل عن كل تطور، وبرفضها التكيف مع التغييرات البنيوية والعلمية والفكرية السريعة والمذهلة والمنتشرة، ألقيت على هامش المجتمع السياسي الحديث، وسبقها الزمن، بل تجاوزها مكملاً السير إلى الأمام دون الإلتفات إلى الخلف.

في الشرق، الذي بوجه عام، لم يشهد ولادة ذاتية طبيعية للرأسمالية، بقيت التقليدوية، أي المرتكزة على اللاهوت والممتزجة به، تشكل الغطاء الإيديولوجي لمجتمعاته الراكدة والآسنة. مع صعود الغرب، أخذ نفوذه وتأثيره يخترق كل الجدران والمعيقات، في الغالب دونما صعوبات شديدة، جدار التقليدية الشرقية التي بدأت تذبل وتتهافت.

## 4- السلبية:

ويقصد بالسلبية الإنفعال وليس الفعل، وتبرز سلبية العقل العربي في أمور عدة أهمها: الدفاع المتأخر عن الذات وذلك عبر ردات فعل متكررة إزاء أفعال الغير اتجاهنا، والهروب مرةً إلى الخلف ومرة إلى الأمام في مواجهة الأمور الحاسمة، دون أن نُشغل عقولنا بالنقد والتمحيص والرؤية الشاملة والعميقة للأمور، والإتكال على الماضي والذات بشكل مستمر، والميل إلى الكلام الفارغ أحيانًا والمهاترات أكثر من الفعل الوازن المنتج الذي يرسم الهدف ويضع خريطة طريق لبلوغه. حُب البذخ والهدر والملذات والترف والكسل والإسراف في أمور غير ذي نفع مع عدم الميل إلى حُب العمل والشغل وبذل الجهد، ولو كان متعبًا وقاسيًا، وعدم استيعاب فكرة الزمن استيعابًا حديثًا عقلانيًا يدفع إلى الحفاظ على اللحظة الحديثة المتطورة نحو الأفضل، والتوجه نحو الشغل المُعرّق لا التباهي بالحصول على حاجاتنا بدون تعب وكد وجهد ومثابرة.

لذا نرى أن عقلنا العربي يستخف بالعمل اليدوي ويترفع عن كل عمل يتطلب الكدح ويلجأ إلى الأعمال السهلة والبسيطة الكسيبة ماديًا والفاقدة استمراريتها لعدم ارتكازها على أسسس متينة وراسخة وقابلة للتطور والتحول والنمو والعطاء. إن الفرد العربي يُفضِّل طريقة الذين يتوجهون إلى عملهم في آخر الشهر كي يقبضوا رواتبهم ويتباهون بذلك أمام الأهل والزملاء والملأ في المجتمع ليحصل على لقب "الشاطر" دون أن يعطي بإرادته وقوة عضلاته وصلابة وإصرار قراره بالسعي نحو الإنتاج والتضحية والوصول إلى حاجته بثمن قدّمه من ذاته، من جهده المتواصل، من اندماجه مع الآخرين والعمل معهم بروحية العقل الجماعي.

كما تبرز سلبية العقل العربي في ظاهرة الولع بركوب الموجات الطائفية والعشائرية والقبلية والمذهبية والإثنية، مقتنعاً أن خلاصه يتم من خلالها وعبرها، ويهمل الاتجاهات الوطنية والعلمانية والديمقراطية والقومية. تناقضنا إنفعالي، سطحي، سريع وإبن لحظته، وعندما يسقط لسبب ما، لا يلجأ إلى النقد والتجاوز للواقع الذي يعيشه وتخبّطَ به بل يكتفي بالندم ولعن الحظ وسوء الطالع. وكما قال الصديق والرفيق المفكر الراحل ياسين الحافظ: "ثورتنا فورة وهزيمتنا غورة". فنحن نحب ونكره نفس الأشياء في

ذات الوقت. فالحاكم اليوم يكون نبياً وغداً خنزيراً ومتآمراً، ومن يمد يده إلينا من دول صديقة، اليوم أصدقاء وغداً أعداء... والغرب بنظرنا حضارة واستعمار... حتى الكلمة العربية التي نستخدمها غير محدّدة، لم تؤخذ في سياق الكلمة والشيء، فهي تعني عدة أمور في وقت واحد ولا تعني شيئًا في وقت آخر. ويتجه عقلنا العربي إلى المبالغة بالأمور وتضخيمها أو إلى احتقارها والاستخفاف بها، ويتضح ذلك من مفردات اللغة التي نستخدمها في التعبير عن مواقفنا وأسلوب الخطابة وضرب الأمثال واستعمال كلمات وصيغ أضخم حجماً من المناسبة والواقع. الإنفعال الذي يتسم بالقدرة المفاجئة والهجوم المفاجئ سواء على مستوى القضايا الفردية أو القضايا الاجتماعية والوطنية أو القومية، هي علّة علّلنا، وحالت دون تقدمنا. الميل إلى التفكير الخيالي ومجافاة الواقع بكل تعقيداته وتركيباته ومزاياه ونواقصه، مع التعلق الغيبي بالأمور وتغليب شؤون الآخرة على شؤون الناس والدنيا، مِما يفقدنا الدنيا ونخسر الناس ولا نتذوق بما تعدنا به الآخرة.

* * * * * * *

هذا التوصيف للعقل العربي، هل هو سُنّة طبيعية شكّلت عقلنا فيزيولوجياً وبنيوياً...؟

لست بصدد البحث الآن عن الأسباب التي أدت بالعقل العربي إلى هذا الحد والمستوى الهابط، ولكن حسبي أن أنوه إلى أن الصورة السلبية والشاجبة لهذا العقل نتجت عن ظروف تاريخية: سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية وإيديولوجية عبر سيرورة طويلة من القرون التي اكتنفتها الصراعات الداخلية والخارجية، وأن أبرز الأسباب العميقة والمعيقة لنمو العقل العربي تكمن في أسلوب الإنتاج ونوعيته القديمة والعلاقة بين الإنتاج والمنتج.

وللخروج من هذه الدوامة والارتقاء بالعقل العربي إلى درجة عقلانية وعلمية ومتطورة ومتصاعدة، يفترض:

**أولاً:** العمل نحو عقلنة الانتلجنسيا العربية، عقلنة الكتاب والمفكرين والباحثين والمثقفين، ثم الخروج إلى دائرة الجماهير الواسعة، بكل أطيافها وطبقاتها وانتماءاتها، أي تعميم العقلانية.

**ثانياً:** التسلح بالمناهج العلمية المتقدمة التي كانت أساس تقدم الشعوب وأرست ظلالها على حضارتهم وواقعهم المتغير على الدوام، وتعميم هذه المناهج في كل مراحل التعليم، وفي أساليب العمل والمداولات ورسم آفاق أعمالنا وممارساتنا اليومية في البيت والعمل والمنتدى والجمعية والتنظيم.

**ثالثاً:** القطيعة مع سلطان الماضي الذي يستوعب حاضرنا ومستقبلنا ويحول دون تجاوزه نحو عالم آخر متقدم، واعتبار الماضي تجربة نتعلم منها ونأخذ المفيد من بينها ونرمي الباقي وراء ظهورنا.